**المحاضرة رقم 14**

1. **نظرية التبادل الاجتماعي**

كتب جيمس فريزر عن عادات الزواج والنظام القرابي في المجتمعات البدائية، حيث أوضح في إحدى دراساته ظاهرة نظام الزواج بين أبناء العم، وقد استخدم التفسير الاقتصادي القائم على المنفعة في توضيح هذا النوع من الزواج. فعند الزواج لا يتطلب من الفرد أن يكون مالكا لثروة مالية أو مادية، بل يشترط أن يكون لديه أخوات أو بنات لكي يستطيع أن يتزوج بواسطتهن، حيث لا يستطيع أن يحصل على زوجة ما لم يقدم امرأة من أخواته أو بديلا لها إلى عائلتها.

فالمبادلة النسوية تحل محل الملكية الفردية في نظام الزواج الذي يتطلب تبادل إمرأة بإمرأة. واستنتج جيمس فريزر أن المرأة تتمتع بقيمة اقتصادية وتجارية عالية، وأن الرجل الذي لديه عدة أخوات أو بنات يكون ثريا، لرجل والعكس فقدانه لهن يجعله فقيرا ولا تتاح له فرصة الزواج. ولذلك فالفرصة تكون متاحة أكثر للشيخ الرجل المسن، لكونه لديه فرص عملية تبادل النساء، فهو ثري ولكن ليس بالمقياس المادي. وفي المقابل، يكون الشاب أقل حظا في الزواج، فهو يبقى أعزب لفترة طويلة من الزمن، وفي هذه الحالة يقوم رئيس القبيلة بمساعدته في تقديم إحدى بناته أو أخوات له كزوجة من باب المساعدة.

وما يستخلص من هذه المبادلة النسوية، هي نتيجة لانعدام عامل الملكية لدى الأفراد، لذلك تكون المرأة كتعويض عن الملكية وإشباع حاجة اجتماعية لتكوين خلية اجتماعية داخل المجتمع. وبذلك أصبحت هذه المبادلة نظاما اجتماعيا وأحد مكونات البناء الاجتماعي في المجتمع، خاصة وأن تبادل النساء من أجل الزواج بين الأقارب يؤدي إلى المحافظة على نفوذ وقوة العائلة أو القبيلة[[1]](#footnote-1).

من المبادلة النسوية إلى التبادل الرمزي القائم على تبادل العلاقات ا ، من خلال تبادل سلع ما بسيطة فيما بينهم، مثلا مجموعة تقدم سلعة بسيطة معينة ومجموعة ثانية تبادلها سلعة الأخرى بسيطة، وهذا ما يساعد على بناء علاقات اجتماعية متينة بين أعضاء الجماعات. فالتبادل السلعي البسيط هو من أجل إقامة علاقات اجتماعية وطيدة، مع خلو هذا التبادل من المنفعة الاقتصادية أو المادية، فالهدف البعيد من وراء هذا التبادل هو دوام واستمرارية العلاقات الاجتماعية.

وقد اختص في دراسة التبادل مالينوفسكي، والذي استهدف من وراء دراساته عن التبادل الرمزي، التمييز بين السلع الاقتصادية والرموز الاجتماعية، لأن عملية التبادل هذه تقوم على العامل الاجتماعي والنفسي وليس الاقتصادي، لكن ليس معنى ذلك التقليل من أهمية وقيمة السلع المادية، فهدف التبادل الرمزي هو تحقيق التماسك والتكامل الاجتماعي داخل المجتمع. ومن ثم، فإن مالينوفسكي استهدف بدراساته، تحرير نظرية التبادل الاجتماعي من تأثيرات المنفعة الاقتصادية، وإظهار عامل التضامن والتكامل الاجتماعي.

وقد واصل في هذا المجال **مارسيل موس** بالبحث عن المبادئ الأولية والقاعدة الأساسية لاستلام إلىدية وإعادتها مرة ثانية. بمعنى ما هي الأسس التي تقوم عليها عملية تبادل إلىدايا في المجتمع البدائي؟ وما هي القوى التي تلزم الفرد على تقديم هدية مقابل الأخرى؟.

وفي ضوء تساؤلاته هذه، توصل **موس** إلى أن الآداب الاجتماعية تمثل قوة إلزامية في المجتمع، وتمارس على الأفراد لإعطاء أو إعادة هدية مماثلة، لا سيما وأن هذه الآداب العامة غير عقدية أو مكتوبة، بل متعارف عليها فقط بين أفراد المجتمع، وممارستها والالتزام بها، يعني المحافظة على بناء المجتمع.

وفي نفس هذا السياق التبادلي، حّلل ليفي ستروس نظام الزواج من الأقارب وبين أبناء العم. حيث أن الرجل يبادل أخته او ابنته لكي يتزوج، فهذه الطريقة هي أرخص الطرق للحصول على زوجة، لا سيما في غياب العوامل المادية أو الوثائق المكتوبة، لأنه كما سبق، فإن عامل المنفعة الاقتصادية غير موجود في هذه العمليات التبادلية. وعلى اعتبار أن ليفي ستروس يرفض تشبيه السلوك الإنساني بالحيواني، فهو يؤكد بخضوع هذه العملية لقيم وأعراف المجتمع وإرثه الحضاري، وهذا غير متوفر في المجتمع الحيواني. فضلا عن أن السلوك الإنساني لا يشبه الحيواني، من حيث أن الإنسان قادرا على تعلم تسيير النظم والمؤسسات وكيفية التصرف في التبادل الإنساني. وهذا يعزز حصيلة مؤثرات العوامل الاجتماعية الصادرة عن مكونات التبادل الاجتماعي من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية.

ويؤكد **ليفي ستروس** على عامل الكلفة الاجتماعية دون الكلفة الاقتصادية، فالأولى تعني الالتزام بالآداب الاجتماعية العامة والقيم والأعراف وليس مجرد حصيلة إشباع الحاجات النفسية ونظام الزواج والنظام القرابي في نظره، يخضعان لهذه المؤثرات الاجتماعية وليس لعوامل اقتصادية أو نفسية، فضلا عن أن دوافع الفرد لا تؤثر بقدر ما تؤثر مكونات البناء الاجتماعي على عملية التبادل الاجتماعي بين الأفراد، والتي يتم خلالها التفاعل الاجتماعي المؤدي بالضرورة الى تحقيق التضامن والتكامل الاجتماعي[[2]](#footnote-2).

وبالرجوع إلى أصل وبدايات السلوك التبادلي، فهي ترجع إلى بيتر بلاو، الذي يعتبر أن دافع سلوك الفرد الرئيسي في تفاعله وعلاقاته هو التبادل المعنوي أو المادي، والذي يمر حسبه عبر أربعة م ا رحل متسلسلة، وتتمثل هذه المراحل في التعامل اليومي بين الأفراد في الحياة الاجتماعية، مما يزيد من بروز اختلاف مكانات الأفراد ونفوذها، والذي يكشف عن تسلسلها المنتظم ومشروعيتها التي تقوم بزرع بذور الاختلاف والتغير الاجتماعي[[3]](#footnote-3).

ومن خلال هذه المراحل يتحدد سلوك التبادل كما وضعه **بلاو** كالآتي:

* يدخل الفرد في نشاط اجتماعي معين، متوقعا الحصول على مكافأة منه.
* - كلما زادت قيمة المكافأة، زاد النشاط المقابل لها بدرجة أكبر مما سبق.
* - كلما قّلت قيمة المكافأة، نقص ميل الفرد لممارسة نشاط اجتماعي جديد.
* إذا حصل الفرد على منفعة في تفاعله مع الآخر، أوجبه ذلك إرجاع هذه الفائدة للآخر كدين في ذمته، لأنه التزام أدبي أخلاقي.
* يوطد الالتزام المتبادل بين فردين علاقتهما المشتركة برباط موحد.
* - إذا حصل انحرافا تبادليا بين فردين، فإن ذلك يولد موقفا سلبيا من قبل الطرف الذي لم ترد إليه مكافأته، وهذا يعد اختراقا لمعايير التبادل[[4]](#footnote-4).

**خاتمة**

عملت الأنثروبولوجيا على الغور في ثنايا الشأن الإنساني ووجدت لها مريدين من الرواد الأوائل في العالم وقد جمعت بتوجهاتها كل توجهات العلوم الأخرى لتتفرع منها عدة فروع ومازال البحث عن طريق التراكم المعرفي مستمر لاشتقاق الفروع المعرفية الجديدة التي تتفرع منها، لزيادة الأجوبة عن الأسئلة الإنسانية الكثيرة التي تحتاج إلى توضيح، لقد جاءت الأنثروبولوجيا للكشف عن غموض كبير في الحياة الإنسانية وعملت لأجل ذلك العديد من الدراسات التطبيقية التي اختبرت الميدان فيها واستطاعت بالوصف والتفسير والتحليل والتأويل أن تتوصل إلى التنظير الأنثربولوجي المهم الذي بات يعتمد عليه الإنسان في حياته ،ودخلت الأنثروبولوجيا إلى المجتمع العربي بشكلٍ خجول متضاربة في ذلك مع التفكير الديني والأطروحات الفكرية التي ترى منها تدخَّل في خلق الإنسان ومدعاة لكشف المجتمع لكل قوى استعمارية تحاول استغلاله، ومازالت بحاجة إلى ترسيخ بشكلٍ اكبر بتوسيع الوعي بالمعرفة الأنثروبولوجية وتوسيع الدراسات التي من شأنها أن تسلسل التطور الحضاري العربي والتغييرات التي طرأت عليه وكيفية التعامل مع السمات الحضارية الخاصة به في الوقت الحالي.

1. - Abraham franis: **Modern Sociological theory**, Oxford University Press-Delhi, p 160,161. [↑](#footnote-ref-1)
2. - Turner, Janathan: **The structure of sociological theory**, the dorcy press, homeword., p 299,300. [↑](#footnote-ref-2)
3. - معن خليل عمر، **نظريات معاصرة في علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2015، ص 184. [↑](#footnote-ref-3)
4. - معن خليل عمر، **مرجع سابق**، ص 188. [↑](#footnote-ref-4)